خصائص الخطاب الحصري ومقارنته بخصائص الخطاب العالمي في القرآن

للأستاذ الدكتور / عدنان محمد زرزور
رئيس قسم التفسير والحديث
كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية
جامعة قطر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بهديه إلى يوم الدين ، وبعد :

جاء خطاب القرآن الكريم خطاباً عالمياً غير محدود في إطاري الزمان والمكان ، في حين كان خطاب جميع الأنبياء السابقين ـ ولا نتحدث هنا عن الفلاسفة والمصلحين ـ محصوراً في أقوامهم ، أو خاصاً بهؤلاء الأقوام في زمن بعينه ، ولهذا فقد كانت رسالة كل نبي سابق ـ أي نبي ـ تنتهي بموته ، ومن هنا كان شعارهم جميعاً ، أو نداؤهم (ياقوم) ، وجاء خطاب النبي الخاتم ﷺ موزعاً بين (يا أيها الناس) و(يا أيها الذين آمنوا) ؛ فالخطاب الأول دعوة إلى الهداية والإيمان ، أو الدخول في الإسلام : يا أيها الناس آمنوا . أما الخطاب الثاني فهو خطاب تكليف لجماعة المهتدين ، أو لأمّة المؤمنين الداخلين في الإسلام : يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا ، أو لا تفعلوا كذا . .

ويحسن البدء هنا بالحديث عن خطاب ثالث ورد في القرآن الكريم مصدَّراً بـ (يابني آدم) وقد يفهم من سياق هذا الخطاب ـ التاريخي ـ الذي جاء في القرآن في بضعة مواضع ، أنه سابق لأنواع الخطاب الثلاثة السالفة ومتقدم عليها ، لأنه خطاب للإنسان بحكم آدميّته أو بحق كونه من بني آدم ! وليس من سلالة أخرى لم تكرّم كرامة بنى آدم ! ولهذا فإن هذا الخطاب لم يتأخر عن قصة خلق آدم ، بل إن الآية الأولى التي صُدّرت في القرآن الكريم بهذا النداء (يابني آدم) ـ الآية ٢٦ من سورة الأعراف ـ جاءت بعد الحديث عن هبوط آدم من الجنّة مباشرة ! قال الله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (الآيتان ٢٤ ـ ٢٥) ثم أعقبها تعالى بالآيتين التاليتين : قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الآية ٢٦) ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ

وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الآية ٢٧) .

وموضوع هاتين الآيتين واحد كما هو واضح : اللباس الذي يواري السوأة ، وفوقه الريش الذي يتجمَّل به الإنسان في لباس البدن ، أو في متاع الزينة والأثاث . . كل هذا من سمات (الآدمية) ومن أوضاع بني آدم ! ، كما أن من شأنهم جميعاً أن يتجملوا بلباس التقوى يسترون به عورة النفس والروح بعد سترهم لعورة الجسد والبدن . أما النزع والتجريد وكشف سوءات البدن والنفس ، فأوضاع شيطانية لا يقع فيها بنو آدم ، أو لا ينحدرون إليها إلا وقد أصاب منهم الشيطان سوءة في النفس والعقل : ﴿ إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ وليس من شك ـ بهذه المناسبة ـ في أن الصرعات العقائدية التي تنطلق في ظل الإباحية صرعاتٌ شيطانية وَليُّها أو قائدها الشيطان ! بل إن بعض هذه الدعوات التي تعبد الشيطان حقيقة يعيش أصحابها ـ في الوقت نفسه ـ في أحلام المخدرات ، وفي مستنقعات العري وأوهام الجنس ! .

وعلى أية حال ، فقد خوطب بنو آدم يوم القيامة بهذا الخطاب (يابني آدم) في موضع واحد ـ ورد في سورة يس ـ يتصل بفتنة الشيطان وعبادته هذه التي حذّر الله تعالى منها في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ (الآيات ٦٠ ـ ٦٢) .

أما الآيات الأخرى التي ورد فيها هذا الخطاب ـ يابني آدم ـ في الدنيا ، فهما آيتان أخريان تاليتان للآيتين السابقتين في سورة الأعراف (الآيتان رقم ٣١ ، ٣٥) أي أن جميع هذه المواضع التي ورد فيها هذا الخطاب ـ التكليفي ـ جاءت في آيات متقاربة في سورة الأعراف (الآيات رقم ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥) وفي أعقاب الحديث عن قصة آدم وهبوطه من الجنة كما أسلفنا . وتؤكد الآية رقم ٣١ على أخذ الزينة وستر العورة عند الصلاة والطواف ـ كما يقول المفسّرون ـ بوصف هذه الزينة شرطاً لازماً ووضعاً سابقاً أشارت إليه الآيات السالفة ، من ناحية . وبوصف البيت الحرام أول بيت أو مسجد وضع للناس بعد هبوط آدم ، من

ناحية أخرى . كما تنهى هذه الآية نفسها عن السرف في الطعام والشراب ، أو بعبارة أدق : تأمر بالأكل والشرب ، بعد أن أمرت بأخذ الزينة « عند كل مسجد » قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ .

وقد يفهم من هذا كله أن هذه الأوضاع في الزينة واللباس وستر العورة ، وعدم الإسراف في الطعام والشراب . . واخيراً : التطلع إلى العبادة . . من خصائص (الآدمية) التي تتقدم التكليف وبعث الرسل ، لأن هذه الآيات ختمت بالآية رقم ٣٥ التي تأمر بنى آدم بالإصغاء إلى صوت الأنبياء القادمين ، حين يبعثون من بين ظهرانيهم « يقصّون » عليهم آيات الله ، ويحثونهم على التقوى والصلاح والإصلاح ، حتى يعيشوا في الدنيا حياة لا خوف فيها ، ولا حزن معها أو بعدها ، قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ وينتهي هنا الخطاب بـ (يابني آدم) ، أو ينتهى بهذه الآية التي أشارت إلى أن الرسل سوف يبعثون ـ في أجيال وأحقاب ـ من بين أظهر الأمم والأقوام (منكم) . . لكل أمة رسول ، بُعث في قومه وبلسانهم ، منذ نوح وإبراهيم عليهما السلام . . وكان شعارهم جميعاً (ياقوم) حتى ختمت هذه الشجرة الزكية بمحمد ﷺ ، الذي بعث كذلك (من قومه) ولكنّه لم يبعث لهم وحدهم ، ولم تقتصر رسالته عليهم . . وهكذا كان خطابه : (يا أيها الناس) لا غرو إذن أن يخاطب جميع الأنبياء السابقين بأسمائهم ، وأن يُفرد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، بالخطاب بصفته (يا أيها النبيُّ) و(يا أيها الرسول) إشارة إلى نبوّته التي لا تنقطع ، ورسالته المستمرة إلى يوم الدين ، فالمسألة في هذا الخطاب أكثر من كونها تكريماً وتشريفاً له عليه الصلاة والسلام .

ويمكننا عند هذه النقطة أن نتحدث عن طبيعة الخطاب الحصري السابق للأقوام والشعوب بوصفه خطاباً (قومياً) ، تمهيداً للحديث عن (خصائص) هذا الخطاب التي يمكن ردّها على الرغم من تشعبّها إلى هذه الطبيعة الخاصة .

خطـاب قومي :

إن الطبيعة (القومية) لرسالات جميع الأنبياء السابقين يمكن الاستدلال عليها ـ كما أشرنا ـ بهذا الخطاب أو الشعار الذي تتابع عليه هؤلاء الأنبياء قبل محمـد ﷺ (ياقوم) ولهذا ، فإن هذا النداء لم يرد على لسان خاتم الأنبياء مرة واحدة في الكتاب العزيز .

كما يمكننا الاستدلال على هذه الطبيعة ـ القومية ـ من خلال الجمع بين هذا النداء ـ ياقوم ـ وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة فاطر : ٢٤) الأمر الذي يشير إلى التطابق بين مفهومي الأمة والقومية ، أو بعبارة أدق : إلى تاريخية هذا التطابق قبل مجيء رسالة الإسلام ، بل لقد صرّحت آيات قرآنية كثيرة بأن الأنبياء السابقين بعثوا في (أمم) أو بعث كل نبي في أمّته ، قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾(سورة يونس : ٤٧) وقال تعالى :﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ (سورة النحل : ٣٦) وقال تعالى : ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ (سورة المؤمنون : ٤٤) .

والنقطة الهامّة هنا ، هي أن الخطاب العالمي الذي ميّز رسالة محمد ﷺ لا يمكن ـ ولا يجوز ـ أن يفهم في الإطار القومي ، أو أن نعود به إلى الدائرة القومية ـ العربية ـ بحجة أن النبي الكريم بُعث كذلك في (أمّة) كسائر الأنبياء السابقين ، لأن مفهوم الأمة هنا ينبغي أن يفهم في إطار الخطاب العالمي : (يا أيها الناس) و(يا أيها الذين آمنوا) على النحو الذي فهمنا « الأمة » في رسالات الأنبياء السابقين في ضوء خطابهم : « ياقوم » ، الأمر الذي دلّنا على تطابق هذين المفهومين في تلك المرحلة كما أسلفنا . أما مفهوم « الأمة » في خطاب النبي الخاتم ـﷺـ فقد انفصل عن مفهوم القومية ، وصار (عقائدياً) شعاره (ياأيها الذين آمنوا) وقاعدته الناس جميعاً (يا أيها الناس) ولهذا فإن علماءنا السابقين لم يُبعدوا عندما قسموا أمّة محمد ـ ﷺ ـ إلى أمّة دعوة (الناس جميعاً) وأمة إجابة (جماعة المؤمنين) . مع الإشارة ـ بهذه المناسبة ـ إلى أن هذا المفهوم العقائدي

للأمة لا يلغي القومية ولا يؤثّمها أو يعتدي عليها ، بوصفها انتماء أو وضعاً من أوضاع الخلق والتكوين ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة الحجرات : ١٣) فسوف يبقى الناس موزّعين إلى يوم الدين إلى شعوب وقبائل ، بغض النظر عن التمايز بين المجتمعات الإنسانية من حيث التكوين الاجتماعي الذي قد تشير إليه الآية ـ إذا سلّمنا بأن الشعب أكثر تطوراً من القبيلة ـ لأن سياق الآية لم يأت لتقرير هذا التمايز ، ولكنه جاء لتقرير أغراضه وأهدافه في واقع الحياة الإنسانية أو في حياة الناس الذين خُلقوا من نفسٍ واحدة ! .

وعلى أية حال ، فإن الحديث عن القومية ، أو عن مرحلة النبوات السابقة التى كان شعارها (ياقوم) ربما جاء تالياً لمرحلة التوزيع هذه إلى شعوب وقبائل ، بل التي يمكن عدّها من الخلق الأول ، لأنها جاءت في أعقاب الخلق من ذكر وأنثى ، كما يفهم من هذا العطف (خلقناكم) و(جعلناكم) . يدل على هذا أن (القومية) رُبطت في القرآن ـ أو كما يفهم من بعض آياته الكريمة ـ باللغة ، سواء أكانت لغة قبيلة واحدة أم أكثر ، بل يمكننا عد هذه الدائرة القومية ـ التي اقتصرت عليها رسالات الأنبياء السابقين ـ دائرة (لسانية) أو مرتبطة باللغة في الاعتبار الأوّل ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ ﴾ (سورة إبراهيم : ٤) .

وإذا كان من تحصيل الحاصل أن نقول إن محمداً ﷺ كان لسانُه لسانَ قومه ، وقد بُعث منهم ، فإن مما تجدر الإشارة إليه أن رسالته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما لم تكن خاصة بالعرب وحدهم ، فقد أضيف اللسان العربي إلى النبي لا إلى قومه ، قال تعالى مخاطباً نبيّه الكريم : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ (سورة مريم : ٩٧) إشارة فيما يبدو إلى أن المسألة في هذه الرسالة العامة الخالدة روُعي فيها لسان المبلِّغ لا لغة

القـوم ، أو لأن المسـألـة تبـدأ من النبي لا من قومـه ، أو تبـدأ به ولا تنتهي عندهم . . لأنهم جزء من المكلَّفين لا جميعهم . . ولهذا تحدثت الآية عن تبشير (المتقين) وإنذار المعاندين ـ تبعاً لشعار : يا أيها الناس ، ويا أيها الذين آمنوا ـ مع الإشارة إلى أن الآية الكريمة خَصَّت هؤلاء المعاندين بتعبير (قوم) إشارة إلى الاجتماع والتعصّب الذي يقابل به كلُّ (قوم) معاندين دعوة محمد ﷺ ، دفاعاً عن أوضاعهم وامتيازاتهم ! والله تعالى أعلم .

خصائص هذا الخطاب الحصري :

أولاً : خطاب تاريخي (أو مرحلي)

يمثل هذا الخطاب الحصري مرحلة تاريخية معينة أو حقبة من حقب التاريخ السابق على نزول القرآن الكريم . لقد كان نزول القرآن الكريم إيذاناً بتقسيم عصور التاريخ الإنساني إلى عصرين رئيسين ، يضاف إليهما عصر قصير ثالث له فلسفتـه ودلالتـه الخاصة . أما هذان العصران فهما عصر ما قبل نزول القرآن الكريم ـ ويمكن أن نرمز له بـ (ق ن) ـ وعصر ما بعد نزول القرآن الكريم ، ويمكن أن يرمز له بـ (ب ن) وهو العصر الممتد منذ آخر آيات القرآن نزولاً حتى قيام الساعة ، ويمكن أن نسمّي ما قبل النزول : البعد التاريخي للقرآن ، وأن نسمّي عصر ما بعـد النزول : البعد الزماني أو المستقبلي . وقد أشير إلى هذا التقسيم ، وإلى التحدي بصدق ما نصّ القرآن على وقوعه أو حدوثه قبل نزوله ، وبصدق ما أشار إلى وقوعه ، وإلى ما شرعه للناس فيه وحدَّثهم عنه ـ بجميع معاني الصدق ـ بعد نزوله ، أشير إلى هذا كلّه بقوله تعالى : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (سورة فصّلت : ٤٢) .

وغني عن البيان أن عصر ما قبـل النـزول هو محل أو موضـع (الخـطاب الحصري) الـذي نتحدث عنه . أما العصر الثالث فيتمثل في (البعد الزماني) للنزول نفسه ، أو الفترة الزمانية التي تم فيها نزول القرآن منجّماً في نحو ثلاثة وعشرين عاماً ، ونشير هنا إلى أن هذه الفترة هي التي اتسعت لأسباب النزول ، وللنسخ (عند من يرى وقوعه في القرآن) ولتصويب حركة التطبيق والتنفيذ . .

في سياق الانتقال بمجتمع التنزيل من الجاهلية إلى الإسلام . . كما أوضحنا ذلك في مناسبة سابقة[1] .

أما الخطاب الحصري الذي كان موجهاً للأمم ـ أو الأقوام ـ السابقة على نزول القرآن الكريم فقد جاء في إطار تاريخي ، أو بوصفه تاريخاً من التاريخ ، ولهذا غالباً ما صُدّر بـ « إذ » الظرفية ، أو جاء في سياق التذكير ـ « واذكروا » وعطفاً عليه . وأبرز ما تجب الإشارة إليه في هذا السياق : الخطاب القرآني المتصل ببني إسرائيل ، على وجه الخصوص . وبأهل الكتاب ، على وجه العموم ، علماً بأن هذا المصطلح ـ أهل الكتاب ـ يطلق على كلٍ من اليهود والنصاري مجتمعين أو متفرِّقين . وغني عن البيان أن عيسى بن مريم عليه السلام بُعث في بني إسرائيل خاصة ، كما نصّت على ذلك آيات الكتاب العزيز (الآيات ٤٩ ـ ٥١ من سورة آل عمران ، والآية ٦ من سورة الصف) .

وهكذا نجد الحقبة الإسرائيلية السابقة على عيسى بن مريم عليه السلام ممتدة في النصرانية ومستمرة معها ، ونجد كذلك (الكتاب المقدس) لدى النصاري يشمل توارة موسى وإنجيل عيسى ، حيثُ سميت التوراة وسائر الأسفار المقدسة التي أُلحقت بها وأضيف إليها في الحقبة الموسوية : العهدَ القديم ، وسُميت الأناجيل الأربعة ورسائل الرسل في العهد المسيحي : العهد الجديد . . وواضح من هذه التسمية : العهد القديم والعهد الجديد ، أنها من عمل العصور المسيحية .

وحين يأتي هذا الخطاب الحصري لأهل الكتاب في غير الإطار التاريخي المشار إليه ، تكون قاعدته أو منطلقه دعوة القوم إلى الإيمان والتصديق برسالة محمد ﷺ ، والدخول أو الانضمام إلى ركب الإيمان النافع أو المقبول ، أو التي لا تغني عنه صورة الإيمان الذي كانوا عليه ، والذي كان له بعض الاعتبار قبل نزول القرآن ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص ٩٨ ، دار القلم بدمشق ١٩٩٥ .

لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (سورة النساء : ٤٧) وانظر الآيات التالية .

والذي يشهد لإيمانهم السابق بهذا الاعتبار ، قولُه تعالى : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝١ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (سورة الروم : ٢ ـ ٥) فقد كان الروم النصارى ـ على الرغم من التحريف الذي لحق بالنصرانية على أيديهم ـ يمثلون في ذلك الوقت دولة الإيمان ، أو دولة المؤمنين في مقابل الوثنية الفارسية ، وذلك قبل أن تقوم دولة المسلمين في المدينة ، وقبل أن ينهض المسلمون بواجب الخلافة ، أو يصبحوا خلفاء الأرض على مستوى الأمة والدولة ، والذي ارتقوا إليه من خلال دولة الإيمان التعاقدية التي أقامها النبي ﷺ في المدينة ، بل التي هاجر من أجل إقامتها كما هو معلوم . .

وقد بقي خطاب أهل الكتاب في القرآن مستمراً ، أو لم يقف عند حدود قاعدة دعوتهم إلى الدخول في الإسلام ، لأسباب كثيرة . . ويشير هذا الاستمرار ، بمضامينه المتنوعة ، أو من حيث المبدأ ، إلى بقائهم واستمرارهم ، أو بعبارة أدق : إلى علم الله تعالى ببقائهم . . وقد يمثلون (أمة الدعوة) في أقدر شعوبها على الحياة والتطور والاستمرار . . كما يشير حديث النبي ﷺ في اتباع المسلمين لهم واقتدائهم بهم حين يفقد المسلمون أمتهم ودولتهم ـ التي دخلوا بها التاريخ يوم الهجرة ـ أو حين تخبو جذوة الإيمان في صدورهم[1] !

ويصعب علينا تقصِّي هذا الخطاب لأهل الكتاب في القرآن الكريم ـ ولبني إسرائيل على وجه الخصوص كما قدّمنا ـ نظراً لأنه شغل مساحة ملحوظة في الكتاب العزيز . من جهة ، ونظراً لتعدد مضامين هذا الخاب وتنوُّعها في

(١) أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لتتبعنّ سنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ تبعتموهم ! ـ وفي رواية : لدخلتم فيه ـ قالوا : يارسول الله : اليهودَ والنصارى ؟ قال : فمن ؟» أي : فمن غيرهم إذن ؟ نعم إنهم هم .

السياقات التي ورد فيها ، من جهة أخرى ؛ الأمر الذي يحتاج إلى دراسة مستقلة وموسّعة ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى الملاحظات والنقاط التالية :

١ - أول خطاب لبني إسرائيل ورد في القرآن الكريم ، بعد أن تم ترتيب سوره في المصحف على هذا النحو التوقيفي ، في الآية الأربعين من سورة البقرة - فما بعدها - وقد جاء هذا الخطاب بعد الحديث عن استخلاف آدم ، والأمر الإلهي له ولإبليس بالهبوط من الجنّة : قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ إلخ الآيات .

وقد قام هذا الخطاب على (تذكيرهم) بنعم الله تعالى عليهم ، وأمرهم بالوفاء بالعهد . . إلى جانب دعوتهم للإيمان بمحمّد ﷺ وبالقرآن الذي نزل عليه ، قاعدة خطابهم بصفة رئيسة أو بوجه عام ، وبسبب تصديق ما نزل على محمد ﷺ لما معهم بوجه خاص . ويدخل في هذا السياق كذلك : الآية السابعة والأربعون التي نصّت على تفضيل بني إسرائيل على العالمين ، من باب (التذكير) بتلك النعم التي أنعم الله تعالى بها على آبائهم ، قال تعالى : ﴿ يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأنّي فضلتكم على العالمين ﴾ (الآية ٤٧ سورة البقرة) أي إن هذا التفضيل (تاريخي) سابق ، بمعنى أنهم فُضّلوا على عالمي زمانهم قبل بعثة النبي ﷺ ، ولا يمكن لهذا التفضيل أن يفهم على إطلاقه ، أو في ضوء (الحاضر) القرآني ، لاسيما وأن القرآن الكريم ، في آياته المكية والمدنية ، ذكر انحراف اليهود واستحقاقهم لغضب الله ، ووقائع التنكيل بهم ، وأسبابها ونتائجها ، وتحدث عن فسق كثير منهم ، بالإضافة إلى جواب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بأن عهده سبحانه لا ينال الظالمين من ذرّيته[1] .

(١) راجع كتاب : سيرة الرسول للأستاذ محمد عزة دروزه - رحمه الله - ٢/١٦٥ ويرى الأستاذ دروزه : ضرورة صرف التفضيل إلى بعثة موسى عليه السلام .

ويبدو من استعراض سائر الآيات التي وردت هنا في بني إسرائيل ، والتي جاءت عقب الحديث عن هبوط آدم كما قلنا ـ صاحب الخلافة الأولى ـ أنها جاءت في النسق القرآني بوصفهم آخر أمةٍ من ذرِّيَّة آدم نهضت بالنبوة والرسالة وقامت بواجب الاستخلاف ، قبل العرب ونبي الإسلام ﷺ ، أو قبل أن يأذن الله تعالى بتحويل هذه النبوة من أولاد يعقوب (إسرائيل) إلى أولاد إسماعيل عليهم السلام .

٢ - ويبدو أن من أسباب إفراد اليهود بخطاب خاص في القرآن الكريم : ظنهم أن الرسول ﷺ سوف يجعلهم خارج نطاق دعوته ، قياساً على دعوات أنبيائهم الخاصة أو القومية ، أو لعدّهم أنفسهم أهدى من أن تشملهم هذه الدعوة ، حتى إنهم كانوا ينتظرون انضمامه إليهم ! قال تعالى في شأنهم : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ .. ﴾ الآية ١١١ سورة البقرة . وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ .. ﴾ الآية ١٢٠ سورة البقرة . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية ١٣٥ سورة البقرة .

وتقرب هذه الأقوال أو المزاعم من دعواهم أنهم ـ اليهود والنصارى ـ أبناء الله وأحباؤه ! قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ (الآية : ١٨ من سورة المائدة) الأمر الذي أعقبه الله تعالى بهذا الخطاب ـ في الآية التالية : ١٩ ـ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ حيث أشارت هذه الآية الكريمة إلى تعويلهم على فترة الانقطاع هذه ـ التي أعقبت بعثة عيسى بن مريم عليه السلام ـ في بقائهم على ديانتهم ! في الوقت الذي انتظروا من النبي الكريم عندما بعث أن ينضم إليهم ، أو عدّوا أنفسهم خارج نطاق دعوته وملّته عليه الصلاة والسلام . ولكنها الحجج الواهية والمزاعم الباطلة التي ناسبها ، فوق دعوتهم إلى الدخول في الإسلام ، أو

بالإضافة إليها ، مواجهتهم ومساءلتهم ، وبيان تحريفهم وكذبهم ، ومدى ما انساقوا إليه من الأماني والأوهام ، والإشارة إلى أن المعاصرين منهم لوقت التنزيل ، ومن سيأتي من ذريتهم ـ اليهود خاصة ـ فيما بعد : ذريَّةٌ بعضها من بعض . . توارثوا أخلاق أسلافهم ، وتشابهت قلوبهم . . وأخيراً ، تقرير حق الهيمنة ـ والتصويب ـ للقرآن الكريم على كتبهم ورسائلهم ! ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ (سورة المائدة : ١٥) ﴿قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (سورة البقرة : ٩١ ﴾ إلخ الآيات[1] . .

٣ - ويمكننا القول ـ أخيراً ـ إن الخطاب القرآني الخاص باليهود والنصارى ، وببني إسرائيل على وجه الخصوص ، يؤكد « هيمنته » على « كتابهم » وعلى جميع ماتقدّمه من الكتب والرسالات السابقة . بالإضافة إلى ما تشير إليه هذه الهيمنة وتدل عليه من عالمية القرآن وخلود خطابه إلى يوم الدين ؛ إذا لاحظنا بقاء اليهود ، وعقائدهم وأخلاقهم ووسائلهم التي حدثنا عنها القرآن الكريم ، والتي تذرّعوا بها وعوّلوا عليها في الوصول إلى مقاعد القيادة والتأثير في عالم اليوم ـ على سبيل المثال ـ وبعد مئات السنين من نزول القرآن الكريم . لقد تنوَّع الخطاب القرآني معهم ، وكثرت فيه ضروب الحجاج والنقاش وإقامة الأدلة والبراهين ، ليس لوضعهم أو مركزهم الجغرافي في يثرب وبعض البلاد القريبة ، ولا لوضعهم الديني والثقافي وأثرهم السياسي ـ والاجتماعي ـ عند البعثة النبوية ، أو بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة . . ليس لهذا فحسب ، فقد يكون هذا كله ذا أثر في (عصر التنزيل) ـ البعد الزماني للنزول ـ ولكنْ لأن أثرهم الديني

(١) وانظر الآية ١٨٣ من سورة آل عمران .

وراجع تفسير آية سورة البقرة (رقم ٩١) في كتاب النبأ العظيم للدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله . وانظر فقرة : « وحدة النفسية وتماثل النقائض » وما بعدها . . من كتاب : معركة الوجود بين القرآن والتلمود للدكتور عبدالستار فتح الله سعيد ، ص ١٨٨ ـ ١٩٤ . دار الطباعة والنشر الإسلامية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٤٠٥ هـ .

والثقافي قائم ومستمر من خلال أثر (التوراة) المستمر في المسيحية ، فضلاً عن أثرهم في صياغة هذه الديانة أو تحريفها . وقد سبقت الإشارة إلى أن عيسى عليه السلام أحد أنبياء بني إسرائيل ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن اليهودية والنصرانية (أو اليهودية الجديدة أو المحدثة) تمثلان آخر الرسالات قبل بعثة النبي ﷺ ؛ وأخذنا بعين الاعتبار ـ في الوقت نفسه ـ الارتقاء الذي كانت تصيبه الأمم والأقوام مع كل رسالة سماوية سابقة وبعثة نبي من الأنبياء (جميع وجوه الخطاب الحصري الذي نتحدث عنه) أدركنا المنزلة التي احتلها اليهود في التاريخ أو قبل بعثة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام . فحين يُفرد القرآن هذه المساحة لخطابهم وجدالهم وعرض ما وقعوا فيه من أخطاء ومظالم ، ليس في العهد المدني فحسب ، بل في العهد المكّي أيضاً ، حيث لم يكونوا أحد عناصر المجتمع ، وليس لهم ذلك التأثير الذي كان لهم في يثرب ، أو في مجتمع المدينة ؛ فإن القرآن يؤكد بذلك كله على « هيمنتـه » على جميع ما تقدّمه من الكتب والرسالات ، من جهة . ويقوم في الـوقت نفسـه ، أو من جهة أخرى بإعداد الأمة المسلمة في طوريها المعهودين ـ المكي والمدني ـ وقاية وتحصيناً في الطور الأول ، حتى لا تكرر أخطاء اليهود ومثالبهم ومظالمهم ، وتبصيراً كذلك بواقعهم الحاضر أو المشاهد ومدى تآمرهم وخطورتهم على المجتمع الإسلامي ، في المدينة . لقد تحدثت الآيات المكيّة عما وقع فيه بنو إسرائيل ـ في عهد موسى وبعده ـ من اتخاذهم العجل ، وظلمهم ، وعتوّهم ، وتبديلهم لكلمات الله ، واحتيالهم على أوامره . . وعما حاق بهم بسبب ذلك كله من التفريق في الأرض ، والابتلاء بمن يتسلط عليهم ويسومهم سوء العذاب[1] .

وأعتقـد أن مركـز اليهود ـ الآن ـ في العالم ، ومكانتهم في إطار النصرانية والثقافة الأوروبية المسيحية خلال عصور التاريخ اللاحقة ، مروراً بعصر النهضة الأوروبي حتى العصر الحاضر ، يزيدنا في فهم الخطاب القرآني الخاص باليهود ،

(١) راجع السور المكيّة التالية : الأعراف ، الإسراء ، طه . وانظر الآيات ١٤٨ فما بعدها من سورة الأعراف ، وهي من السور التي نزلت ـ في العهد المكي ـ في وقت مبكّر .

ومعرفة أسبابه . والله تعالى أعلم .

ثانياً : خطاب زمني وبيئي

جاء الخطاب الحصري للأقوام والشعوب السابقة محدوداً في إطاري الزمان والمكان ، أو في حدود « البيئة » التي بُعث فيها النبي ، و«الزمان » الذي كان فيه القوم ؛ بحيث يمكننا القول إن هذه الاعتبارات ـ البيئية والزمانية ـ تمثل إحدى خصائص هذا الخطاب الذي جاء ـ لذلك ـ رعاية لأوضاعهم ، أو إصلاحاً لحالهم . ولاشك في أنه كان بالنسبة لهم منهج حياة . . ولكن هذا المنهج لم يكن من السعة والشمول بحيث يتعدّاهم ، فضلاً عن أن ينيط بهم ، أو يلقي على كاهلهم واجب هذه التعدية بعقلٍ أو نظرٍ أو فقه أو اجتهاد ! لأن هذه التعدية ـ في هذين الإطارين ـ لم تكن من طبيعة هذا المنهج ، الذي كان إلى الدواء والعلاج أقرب في معظم الأحيان ، فضلاً عن مدى قدرة أولئك الأقوام على النهوض بهذه المهمة لو أنيطت بهم ، أو كلّف بها بعضهم في عصر من العصور السابقة على الإسلام .

والذي يمكن ملاحظته هنا لكل ناظر في القرآن الكريم : التفريق في هذا الخطاب بين العقيدة والشريعة ، أو بين الإيمان والاعتقاد من جهة ، والشرائع والأحكام من جهة أخرى . فالإيمان والاعتقاد بوصفه حاجة إنسانية لا تنقطع ولا تتبدل في جميع العصور ، أي بوصفه لا يمثل ضرورة طارئة أو موقوته ، أو حاجة جيل دون جيل أو قوم دون قوم ، فقد جاء الخطاب (العقائدي) قاسماً مشتركاً في جميع ألوان الخطاب الحصري بدون استثناء .

وغني عن البيان أن هذه (العقيدة) التي جاءت على ألسنة رسل الله جميعاً كانت واحدة ، لأنها تمثل حقيقة موضوعية أو خارجية ، من جهة ، وبوصفها التفسير الوحيد الصحيح لظهور الطبيعة وخلق الإنسان ، من جهة أخرى ، وهكذا دُعي إلى الإيمان بها والتسليم بأركانها (الله تعالى واليوم الآخر) كل إنسان بغض النظر عن قومه أو جنسه ، أو بيئته أو زمانه . . وبغض النظر عن تعدد

إجابات الفلاسفة لأسباب لا مجال للحديث عنها في هذا السياق .

ولم يخرج الخطاب العالمي الذي صاحب رسالة محمد ﷺ في هذا الباب - الإيمان والاعتقاد - عن هذا الخطاب الحصري السابق على الإسلام ، بل لقد تكرر هذا الخطاب (الواحد) الذي جرى التأكيد على وحدته في الصياغة القرآنية المعجزة ، حتى كأننا أمام نبي واحد ، ورسالة واحدة في مختلف العصور (الآيات : ٥٩، ٦٥، ٧٣ من سورة الأعراف . والآيات : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ من سورة هود)، غير أن الفروق بين هذين الخطابين - تبدو في أن محمداً ﷺ لما بعث بالدعوة العالمية ، فقد جاء بالتقرير الأوفى « وبالبيان الأعلى في شأن الدين كله عامة ، والتوحيد منه خاصّة . وقد أمدّه القرآن العظيم بأتم الحجج والبراهين ، وسجل أقاويل الكفار ، وردود الوحي عليها ، حتى تكون حجة الله بالغة باهرة إلى يوم الدين ، وحتى لا تكون للناس على الله حجة بعد ختم النبوة ، لأن القرآن هو صوتها الممدود ، ودعاؤها الموصول . وفيه أكمل حديث عن التوحيد تقريراً وإثباتاً ، ورداً على المشركين والملحدين ، وإبطالاً للشرك وكل ضروب الوثنية والانحراف عن التوحيد »[1] ويمكننا القول : إن الفروق بين هذين الخطابين - الحصري والعالمي - تكمن خلاصتها في التعدية وفي عمل العقل ، أو بعبارة أخرى : تكمن في الوظيفة أو المهمة الذي أناطتها العقيدة الإسلامية بالإنسان مع اختلاف الزمان والمكان ، أو بعد نزول القرآن . ونوجز فيما يلي أبرز هذه الفروق :

١ - قامت معجزات جميع الأنبياء السابقين ، أي أدلتهم على نبوتهم ، على خوارق السنن والعادات وصولاً إلى التسليم ، أو إلى الاضطرار والتسليم دون المرور على قناة العقل ، أو دون انتظار لحكمة بإقرار أو إنكار ! لأن هذه المعجزات الحسيّة - كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام ، أو قلب العصا حيّة لموسى عليه السلام - مناقضة للعادة ، ومخالفة للمألوف من سنن الكون والطبيعة ؛ فلا

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبدالستار فتح الله سعيد ، ص ١٠٩ ، دار النشر والتوزيع الإسلامية ، ط ٢ عام ١٤١١هـ القاهرة .

عدوان فيها على حكم من أحكام العقل ، لأن التلازم الموجود في الطبيعة بين الأسباب والمسببات ـ كحصول الإحراق عند وجود النار ـ تلازم المشاهدة والإحصاء ، وليس كتلازم المقدمة والنتيجة العقلي ، أو في القضايا العقلية أو الرياضية .

ولكن فكّ هذا التلازم ـ في هذه المعجزات الحسّية ـ ليس موقوف الإدراك كذلك أو في الوقت نفسه على العقل ! حتى لكأن العقل كما قلنا ليس معنياً بهذا بإقرار أو إنكار ! بل هي إلى تجاوزه وإبطال عمله أقرب .

ولكن المعجزة في نبوّة خاتم النبيين ، أو في خطابه العالمي القائم إلى يوم الدين ، معجزة عقلية علمية بيانية في وقت واحد ! يتم إدراك « الإنسان » لها أو يزداد علماً بآفاقها وميادينها ـ يوماً بعد يوم ـ بمقدار إمعانه في العقل ، وبمقدار ما يقف عليه من قوانين الكون وسنن الطبيعة ، وبمقدار ما يرتقي في سلّم النقد والبيان وبلاغة اللسان في لغة العرب وفي سائر لغات الشعوب والأقوام .

وتشير هذه المقارنة بين طبيعة المعجزات في كلا الخطابين السابقين إلى أن معجزات الخطاب الحصري لا تصلح للخطاب العالمي ، لأنها إذا صلحت لقوم بأعيانهم في زمن بعينه ، لظروف خاصة بهم ، أو لأن الأقوام السابقة جميعاً لم تبلغ بعد المنزلة التي يقتنعون معها بالمعجزة التي يعمل العقل لفهمها ، وليس بالمعجزة التي تبطل عمل العقول ! فإنها ليست هي المعجزة الصالحة لجميع الناس في جميع العصور ، أو لخطاب الإنسان حين تبلغ الإنسانية رشدها وتدرك من وظائف العقل وحقائق العلم ما لم تكن الأقوام السابقة قد بلغته من قبل ، أو كانت ماتزال في معزل عن إدراكه والارتقاء إليه .

ولهذا ، فإن من أبرز مشكلات الفكر الغربي ، أو مشكلات الفكر المعاصر على وجه العموم : نقل خطاب حصريٍّ ـ في هذا الباب أو في سواه ـ إلى درجة العالمية ، أو جعله خطاباً عالمياً ! أقول : نقل خطاب حصري ، ولا أصفه في هذا السياق بالسابق . . لأن الخطاب يكفي لنعته بالحصرية أو لوصفه بهذا الوصف : البيئة وحدها أو القوم وحدهم ! أي بغض النظر عن التاريخ أو

الـزمـان . وبهـذه المناسبة ، فإننا مازلنا نعتقد أن الثقافة الأوروبية (المعاصرة) أوروبية النشأة والخصائص ، وربما الأهداف كذلك ، وأن الفرصة التي أخذتها في التعميم ـ أو العولمة ! ـ وسعة الانتشار لم تخرجها عن تلك الطبيعة ، أو عن كونها تمثّل « خطاباً حصرياً » بوجه من الوجوه . علماً بأن بسط القول في هذه النقطة الهامة يحتاج إلى بحث آخر . وقد نشير إلى طرف منها في آخر هذا البحث .

ولا تعدو مسألة المعجزة أن تكون واحداً من الأمثلة والشواهد لنقل خطاب حصري ـ سابق كذلك ، أو في هذا المرّة ـ إلى مستوى الخطاب العالمي . . علماً بأن الأمثلة هذه في باب العقيدة ، وفي باب الشريعـة كذلـك كثـيره جداً كما نلاحظ . لقد دُعي الأوروبيون إلى الايمان والاعتقاد بالدين المسيحي ، أو فُرض هذا الإيمان في أعناقهم بحق المعجزات الخوارق التي تحدثنا عنها ، والتي جرت على يد المسيح وأتبـاعـه وأشياعـه من الحـواريين والقـدّيسـين ! علماً بأن هذه المعجزات من جنس تلك المعجزات الحسية التي وقعت في زمن بعينه أمام قوم بأعيانهم ! ومثّلت لذلـك خطابـاً حصرياً في إطاري الزمان والمكان ! إن هذه المعجـزات لاترقى في عصر العقل ، أو في عصر الرشد الإنساني الذي أعقب نزول القرآن الكريم ـ كما سنشرح بعد قليل ـ إلى درجة الإقناع ! فإذا أضفنا إلى ذلك ، أو إلى كونها وقعت في زمنٍ قد مضى وانقضى ، وأنهم مطالبون بالإيمان ـ والتسليم ـ بحكم هذا الوقوع ، أي بحكم الرواية والنقل لتلك المعجزات أو الخوارق . أقول : إذا أضفنا إلى ذلك : اضطراب النقل ، وأن أسانيده لاتثبت أمام قواعد النقد العلمي وقواعد التوثيق ! أدركنا طرفاً هاماً من مشكلات الإيمان والاعتقـاد في الخطاب الأوروبي (المسيحي) ، وفهمنا معنى وأسباب كثيرٍ من مقولاتهم في هذا الباب ، وهي كثيرة لا مجال للإفاضة فيها في هذا السياق ، وإن كان من أبـرزهـا فيما نقدر مقولة « كانْت » في قسم العقل إلي نظري وعملي ! وزعمه أن الدين لا يمكن أن يبنى على العقل ! ولكن على قواعد من الأخلاق ! وأن الإيمان بما وراء الـطبيعة ليس من اختصاص العقل ـ النظري ـ ولكن من

اختصاص العقل العملي ، أي أنه يقوم على التسليم أو مجرّد التسليم ليس غير[1]! وكأنّ « كانْت » يعيدنا إلى معجزات دينه ، وشفاعات قدّيسيه ! لا غرو أن يكون هذا التقسيم عندنا مرفوضاً ، أو لا محل له ولا معنى في إطار العقيدة والفكر الإسلامي .

٢ - وقريبٌ من المعجزة في دور العقل والعلم في فهمها والتعامل معها . . بل في ارتقاء هذا التعامل مع التقدم العلمي عصراً بعد عصر : طريقة الاستدلال ، أو منهج الاستدلال على أحكام العقيدة ومسلّماتها في الخطاب العالمي إذا ما قورن بالخطاب الحصري الذي نتحدث عنه . . بل إن هذا المنهج بآفاقه ورحابته ، وقابليته المستمرة « للتعدية » في المكان والزمان ، يفوق المعجزة ، أو يؤكد على وضعها في إطارها الذي أشرنا إليه ، أي بوصفها المعجزة التي يعمل العقل لفهمها ، وليس بالمعجزة التي تبطل عمل العقول . إن هذا المنهج يبرز مدى تفرد الخطاب القرآني في الدعوة إلى الإيمان والاعتقاد ، ومدى صلاحيته ـ دون سائر أنواع الخطاب الأخرى ـ للعموم والخلود ، وأن العقيدة الإسلامية هي العقيدة المثلى لبني الإنسان لا بحقائقها ومضامينها فحسب ، بل في خطابها وطريقة استدلالها كذلك . ويمكن إيجاز هذه الطريقة أو هذا الخطاب بما يلي :

أ - الاستدلال بعالم الشهادة على عالم الغيب ؛ قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (سورة الذاريات : ٢٠ - ٢١) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة الجاثية : ٣-٤) . إن هذا النوع من الاستدلال في متناول المخاطبين أو الناس جميعاً . ومن هنا جاء تعدد أساليب الإقناع والاقتناع ـ في الخطاب العالمي ـ بين مؤمن من طريق التأمل الذاتي والنظر في أحوال النفس ـ العقل ، الحسّ ، الحدس . . ـ وبين مؤمنٍ من طريق التأمل الخارجي والنظر في الطبيعة ، وما فيها من براهين العناية ، أو قانون السببيّة . .

(١) قصة الفلسفة الحديثة ، لزكي نجيب محمود وأحمد أمين ، ص ١٩٤ .

في عالم النجوم والأفلاك ، أو في عالم الذرّة ، أو في أعماق المحيطات . أو في عوالم لا تحصى في النبات والحيوان وسائر الأحياء والمخلوقات . .

ب - استدلال شامل لمداخل الإيمان جميعها : هذه الدلالات ـ من عالمي الإنسان والكون أو الطبيعة ـ جاءت في الخطاب القرآني جميعاً ، ومن غير استثناء ! وليس هنالك من مدخل للإيمان إلى النفس البشرية من عناصر الإدراك والإقناع في النفس ذاتها ، أو في ظواهر الطبيعة وفي حالاتها العادية أو العنيفة ، إلا أشار إليه القرآن الكريم . وغني عن البيان أن لكل إنسان طريقته الخاصة في تلقّي الخطاب القرآني ، فضلاً عن مدخل الإيمان الذي يجده أكثر إقناعاً له من سواه . ونشير في هذا السياق إلى أن أثر هذه المداخل يختلف باختلاف الأمم والشعوب ، على اختلاف حظها من العلم ، ومن المزايا التي خص الله تعالى بها كل شعب من هذه الشعوب ، كما يختلف باختلاف الأفراد ـ في كل أمّة من الأمم ـ من حيث المدخل الذي يجده كل واحدٍ منهم أكثر إقناعاً له من سواه ، بل ربما اختلف أثر هذه المداخل في نفسه مع اختلاف السنّ والتجربة ، والعلوم والمعارف . . ويبقى الخطاب القرآني صالحاً لجميع الناس على تعدد أقوامهم وألسنتهم ، وفي مختلف حالاتهم وأوضاعهم ؛ قال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (سورة البقرة : ١٤٨) وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (سورة الرعد : ٧) .

أما (الطبيعة) فقد عرضت كذلك عرضاً شاملاً ، في أبواب مختلفة ، وفي سياقات شتى . . والإنسان هنا أياً كانت بيئته التى نشأ فيها ، وأجزاء الكون التي تقع تحت بصره وسمعه ؛ فإنه يجدها في القرآن الكريم . الأمر الذي يمكننا أن نشير معه إلى عالمية هذا الخطاب ، أو إلى الربط بين عموم الرسالة وهذا العرض الشامل الذي لم يفرّط فيه القرآن بشيء !

جـ - استدلال مطّرد يزيد ولا ينقص : ومما يؤكد على خلود ـ واستمرارية ـ هذا الخطاب العالمي ، أو مدى صلاحيته لخطاب الإنسان ما بقي الإنسان ـ أو

ما بقيت الطبيعة والإنسان ـ أن هذا الاستدلال ينمو ويزداد يوماً بعد يوم ، ولا ينتهي أو يقف عند حدٍ لا يعدوه فيما يستقبل من الزمان ! قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (سورة فصّلت : ٥٣) فهذه الآية الكريمة تقرأ على الدوام بصيغة الاستقبال ـ سنُريهم ـ وما من جيل من الأجيال بعد جيل التنزيل إلا وهو داخل تحت هذه الصيغة المستقبلية بالنسبة لمن سبقه من سائر الأجيال . وما تزال الأيام منذ بعثة محمد ﷺ تزيد أمر نبوّته وضوحاً ، وخطابه أو دعوته العالمية تصديقاً ، ونحن نرى آفاق العقل والعلم تزداد وتتّسع ، وأقطار الأرض وجنباتها تضيق وتجتمع ! . . ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ الآية ٨٨ سورة ص .

ثالثاً : بين اختلاف الشرائع وتعدد الفهوم :
(من خصائص الخطاب العالمي)

قام الخطاب الحصري للأقوام السابقة على تعدد الشرائع والقوانين ، أو أنظمة الحياة بوجه عام ، تبعاً لاختلاف البيئة والزمان الذي تحدثنا عنه قبل قليل ؛ لأن ما يصلح لقوم ، أو يُصلح قوماً بأعيانهم في زمن بعينه ، قد لا يصلح لقوم آخرين ، أو لا يصلح لهم في زمن آخر . . وإن كانت هذه الشرائع تمثل في مجموعها منهج حياة كما قلنا . ومن الملاحظ أن هذا الاختلاف بين الشرائع غالباً ما يكون بين الأقوام ، أو بسبب تعدد الأقوام ، لأن الاختلاف الناشيء عن الزمان ، أو اختلاف العصر جاء تابعاً لتعدد الشعوب والأقوام ، أو مقروناً به وفي سياقه ، لأن القرآن الكريم عرض خطاب هؤلاء الأقوام على ترتيبهم أو تعاقبهم في التاريخ . . فقد تحدثت سورة هود عليه السلام عن الأنبياء وأقوامهم على النسق التالي : (نوح وقومه : الآيات ٢٥-٤٩) . قوم هود (عاد) : ٥٠-٦٠ . قوم صالح (ثمود): ٦١-٦٨ . إبراهيم وقوم لوط (لوط): ٦٩-٨٣ . قوم شعيب (مدين) : ٨٤-٩٥ . بنو إسرائيل (وفرعون وملئه : ٩٦-٩٩) وقد جاء

في خطاب شعيب لقومه ، وهو يحذرهم مصير من سبقهم ، ومن كان هلاكه منهم في وقت قريب . الآيتان ٨٩ و٩٠ : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ونشير هنا إلى أن الحديث عن موسى عليه السلام الذي بدأ في الآية ٩٦ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ : جاء في عقب الحديث عن هلاك آخر الأمم السابقة (قوم شعيب) : قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ . ثم جاء التعقيب حول هلاك الأمم السابقة هذه في قوله تعالى ـ في الآية المائة ـ (ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ) . ثم أفرد الحديث عن موسى عليه السلام ، وأن عذاب الاستئصال لم يشمل قومه . ويفهم من هذا الحديث القرآني أن الله سبحانه وتعالى قضى بوقف هذا النوع من العذاب بدءاً من قوم موسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (الآية ١١٠) أو بعد إنزال التوراة ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ سورة القصص : الآية ٤٣[1] . وغني عن البيان أن كتاب موسى ـ التوراة ـ كان موضع اختلاف وشك بسبب التحريف والتبديل ، ولأنه لم يدوّن إلا بعد عقود وأجيال ! ولهذا ، فإن إرسال موسى عليه السلام ـ إلى فرعون وملئه ـ الذي أشارت إليه آية سورة هود السابقة : ٩٧ ليس فيه ما يخرج رسالته عليه السلام من أن تكون في بنى إسرائيل لا تتعداهم . . لأن هذا

---

(١) قال ابن عطية : « . . وقالت فرقة : الآية متضمنة أن إنزال التوراة على موسى هو بعد أن رفع الله تعالى عذاب الأمم ، فلم يعذب أمّة بعد نزول التوراة إلا القرية التي مسخت قردة فيما روي » المحرر الوجيز ١١/٣٠٣-٣٠٤ طبع قطر .

الإرسال كان الغرض منه استخلاص موسى لقومه من طغيان فرعون ! ـ بل يمكن عدّ هذا الإرسال تأكيداً على طابع رسالته القومي أو الخاص ، لا نقضاً له ، أو خروجاً عليه ـ ولهذا فقد كان خطاب موسى موجهاً بصفه رئيسة لفرعون ، وإلى قومه أو ملئه بطريق التبعية أو العطف ، وكانت جميع البيّنات التي قدّمها موسى ، أو طلبها فرعون ، كدليل على أن موسى رسول من ربّ العالمين ، حقيق ألا يقول على الله إلا الحق ، كانت من أجل إثبات حقه أو تلبية طلبه بأن يرسل فرعون معه بني إسرائيل ؛ قال تعالى ـ في سياق مماثل لآيات سورة هود المتقدمة ، وتعقيباً عليها[1] ـ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[2]

وقد يفهم من دعوة موسى لفرعون ، وحواره معه . . أنه دعاه إلى الإيمان بالله تعالى ـ القدر المشترك في جميع ألوان الخطاب الحصري كما قدمنا ـ ولكنّ هذا إنما كان بسبب ادعاء فرعون للألوهية ، وطغيانه الذي تجاوز فيه ، وفي تعبيد رقاب قومه ورقاب بني إسرائيل ، إلى هذا الحد المذهل الذي حكاه عنه القرآن الكريم . ولهذا فإن موسى عليه السلام لم يشمل فرعون ولا قومه بحكم من أحكام الشريعة ، في الوقت الذي لم يرسَل إليهم ولم يُبعَث فيهم عليه الصلاة

(١) انظر الآيات في سورة الأعراف ، من ٥٩ إلى ١٠٢ (من نوح إلى شعيب) .

(٢) وانظر الآيات التالية ، وبخاصة الآية ١٣٤ ، وانظر الآية ٤٧ من سورة طه . مع الإشارة إلى أن آيات سورة الأعراف (١٠٣-١٧١) التي تحدثت عن إرسال موسى إلى فرعون وملئه ، أو قصته التي كان من أبرز حلقاتها : غرق فرعون ، وتدمير ما كان يصنع هو وقومه وما كانوا يعرشون ، هي أول الآيات التي تناولت هذا الموضوع في القرآن الكريم ، نزولاً وفي ترتيب المصحف كذلك ، وتبدو الإشارة القرآنية واضحة إلى أن بنى إسرائيل ـ المستضعفين ـ ورثوا عالم المستكبرين من فرعون وملئه ، (الآيتان ١٣٦-١٣٧) . وأنهم هم الذين انتهت إليهم مهمة الاستخلاف قبل بعثة محمد ﷺ ، وكما أشرنا في هذا البحث .

والسلام . قال تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ سورة الإسراء ٢ . بل يمكن ملاحظة أن الحديث عن الله تعالى وصفاته جاء على لسان موسى رداً على سؤال فرعون له عن إلهه الذي اتخذه ـ من دون فرعون ! ـ ، ومحاولته الإيقاع بموسى ـ وأخيه ـ عليه السلام[1]، وإظهار أن الغرض من دعوته وحضوره سياسي يقوم على محاولة موسى إزاحة فرعون عن السيادة ! وإخراج قومه من الأرض . ولم يأت هذا الحديث ابتداءً ، أو بوصفه جزءً من رسالة موسى إلى قوم فرعون ! .

يمكن القول إذن ـ بعد هذا الاستطراد والتوضيح ـ أن الاختلاف بين الشرائع في الخطاب الحصري السابق على الإسلام كان بسبب تعدد الأقوام ، واختلاف الزمان ، أو بعبارة واحدة : بسبب تعاقب الأمم والأقوام . . وذلك على النحو الذي عرضه القرآن الكريم في مواضع متعددة وبصيغ مختلفة ؛ مفصّلة تارة ، ومجملة تارة أخرى .

ولكنْ مع ملاحظة أن القرآن الكريم ليس كتاباً في التاريخ ، وأن حديثه عن الأمم السابقة كان مقصوراً على بعض الأقوام دون بعض ـ ولعل هذا هو السبب في ذلك العرض المتعاقب ـ فإن في وسعنا أن نلاحظ معالم الشريعة التي جاءت في خطاب كل نبي إلى قومه ، من جهة ، وأن نتلمس أسباب هذا الاقتصار على هذه المعالم ، من جهة أخرى ، ثم نقف أخيراً على موضع هذا الخطاب الحصري من الخطاب العالمي ، من جهة ثالثة .

هذه الأمم التي كانت محل الخطاب القرآني ـ الحصري ـ اشتركت في أنهم جميعاً ظلموا أنفسهم (الآية ٧٠ من سورة التوبة) وأنهم كانوا ظالمين (الآية ٤٠ من سورة الأنفال) وأنهم كانوا قوماً مجرمين (الآية ١٣ من سورة يونس) وهؤلاء هم الذين حلّ بهم الهلاك ، وأصابهم عذاب الاستئصال . أما اليهود والنصارى ، أو بنو إسرائيل فلهم شأن آخر طويل ، سوف نقف على أبرز نقاطه بعد قليل : أما الأمم السابقة : قوم نوح وقوم إبراهيم ، وعاد وثمود وقوم لوط

(١) انظر الآيات ٤٩ من سورة طه ، و٢٣ من سورة الشعراء .

(أهل المؤتفكات) وقوم صالح (شعيب) فقد عالجت شريعة كل نبيّ أسوأ أدواء قومه ، أو أبرز عللهم وأمراضهم . . في النفس والمجتمع ؛ في الوقت الذي أشارت الآيات القرآنية إلى الوصف الإضافي أو الخاص بكل قوم من هؤلاء القوم ، والذي جاء تعقيباً على العقوبة التي حلّت بهم ، أو في سياق الحديث عن موقفهم من أنبيائهم وردودهم عليهم ! فقوم نوح كانوا قوماً عمين ، وأما عادٌ فما كانوا مؤمنين ، وقد شاركوا ثمود في الاستكبار والاستعلاء في الأرض . . وأما شعيب فقد بخسوا المكيال والميزان ، وأفسدوا بجشعهم وأنانيتهم البلاد والعباد ! في حين أشاع قوم لوط الفاحشة التي ما سبقهم بها من أحدٍ من العالمين ! ! وهكذا تتابعت العلل والأمراض . . في الأخلاق والمعاملات ، في النفس والمجتمع . . فجاء خطاب كل نبي في الشريعة التي بعث بها دعوة (إصلاحية) عنيت بجانب الفساد الذي يعاني منه قومه في تلك الفترة من فترات التاريخ .

وإذا كانت مثل هذه الدعوات ، أو مثل هذا النوع من الخطاب ليس صالحاً للتعميم ، أو ليس صالحاً للعموم والخلود ؛ فإن السبب في ذلك يعود إلى هذا الاقتصار أو هذا القصر والتركيز . . . أما هذا الخطاب بمجموعه ، أو هذه الأدواء والشرور في مجموعها فإنها تمثل أدواء الجماعة الإنسانية في كل حين ، أو في المستقبل وبعد نزول القرآن ، أو بعد خطابه العالمي الخالد ، ولعل هذا هو السبب في هذا الاقتصار القرآني على هذه الأدواء والعلل ، إذْ كان من الراجح أن رسالات الأنبياء السابقين شملت أحكاماً أخرى كثيرة في الأخلاق والاجتماع ، أي أن القرآن الكريم شرع للناس جميعاً هذه الوصايا ، أو أمر باستصحاب هذه الأخلاق والأحكام إلى يوم الدين ، أو بعبارة أخرى : نقلها من الخطاب الحصري إلى الخطاب العالمي ، لأنها تمثل في مجموعها إرثاً إنسانياً يستحق الامتداد والخلود ، ومما يدل على ذلك أو يشير إليه : أن القرآن الكريم طوى الحديث عن أمم أخرى كثيرة ـ بين نوح وموسى عليهما السلام ـ وقع عليهم عذاب الهلاك والاستئصال ، دون أن يشير إلى شيء مما وقعوا فيه أو أُمروا به ، قال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا

بَصِيرًا ﴾ (سورة الإسراء: ١٧) . وقال تعالى : ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرسّ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ سورة الفرقان : ٣٨ . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة المؤمنون : ٤٤[1] . يؤكد هذا كله ، ويدل عليه ، أن الخطاب الحصري الذي كان خاصاً ـ بعد ذلك ـ ببني إسرائيل الذين مثّلوا مرحلة ما بعد عقوبة الأمم السابقة بالهلاك أو الاستئصال ، اتّسع فيه القرآن من جهة ، وأشار فيه إلي ما روُعي فيه القوم بسبب وضعٍ عارضٍ أو طارىء . . ليس من حقه أن يستمر ، وإلى ما يمكن بقاؤه واستمراره ، من جهة أخرى ؛ قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (سورة النساء ١٦٠- ١٦١) . وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (سورة الأنعام : ١٤٦) .

هذه القاعدة من قواعد التشريع لبني إسرائيل ، أو هذا السبب (البغي والظلم) لم يعد له وجود في الخطاب العالمي ، أو في شريعة محمد ﷺ ، كما سنشرح بعد قليل . . ولكن تشريعاتٍ أخرى كثيرة لم تقم على هذا الاعتبار ، أو هذا الملحظ ، بقيت واستمرت . ومن هنا جاءت قاعدة الأصوليين أو بحوثهم

---

(١) بعد الحديث عن نوح عليه السلام (الآيات ٢٣-٣٠) فصّلت الآيات القول في قوم آخرين أنشأهم الله تعالى بعد هلاك قوم نوح ، ونجاته ومن معه على الفلك (الآيات ٣١-٤١) كما أشارت إلى قرون آخرين جاؤوا من بعدهم ، قال تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين . ما تسبق من أمّة أجلها وما يستأخرون ﴾ الآيتان ٤٢-٤٣ . ثم جاءت الآية السابقة (٤٤) التي أشارت إلى تتابع الرسل في أممهم ، كل أمة بأجل . . هلكوا جميعاً وصاروا تاريخاً من التاريخ ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ قال ابن عطية : « وقلّما يستعمل «الجعل» حديثاً إلا في الشر » ١٠/٣٥٩ . وبعد ذلك تحدثت الآيات عن كل من موسى وعيسى عليهما السلام (الآيات ٤٥-٥٠) .

حول قاعدة : شرع من قبلنا شرعٌ لنا . وهذا معنى تصديق القرآن لما بين يديه من الكتاب . . مضافاً إليه حق (الهيمنة) والتصويب نظراً للتحريف الذي ألحقه اليهود والنصارى بكتابهم الذي صاحبهم في البقاء والاستمرار . وقد سمّى القرآن الكريم ما خالفه من خطاب هذا الكتاب (أهواء) إشارة إلى هذا التحريف ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(سورة المائدة: ٤٨-٥٠) مع الإشارة إلى أن هذه الآيات وردت في سياق الحديث عن اليهود والنصارى ، أو عن أهل التوراة والإنجيل . وقال تعالى في شأن بني إسرائيل خاصة : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الجاثية : ١٦ - ١٨) .

ومن أبرز ما تحدث عنه القرآن ، في سياق الحدث عن بني إسرائيل ، أو ما نقله من الخطاب الحصري إلى الخطاب العالمي ، نظراً لأهميته البالغة في الاجتماع الإنساني إلي يوم الدين : طغيان فرعون ، بمناسبة محاولة موسى عليه السلام استخلاص بني إسرائيل ، والرجوع بهم من مصر . . الأمر الذي يضفي أهمية بالغةً على مهمة موسى هذه ، لا في جانب قومه أو بحقّهم ولكن بحق أجيال البشر إلى يوم الدين . . ولا ريب عندنا في أن ضمير المجتمع الإسلامي الذي شهد التنزيل ، بل ضمير المجتمعات الإسلامية التي بقيت على ولائها للقرآن

والإسلام . . انطبع بالكره والمقت الشديد لهذه الفرعونيات التي انطوت ـ فيما انتهينا إليه في دراسة قرآنية أخرى ـ على جميع وجوه الفساد والكذب والتدليس والغش والمخادعة والاستبداد والطغيان التي ابتليت بها البشرية ـ وماتزال ـ في تاريخها الطويل ، قبل نزول القرآن وبعده ؛ الأمر الذي نرى معه أن يطلق مصطلح أو عبارة « الحكم الفرعوني » على نظام الحكم الديكتاتوري ـ كما يُدعى ـ وسائر الأنظمة التي تعتدي على حرية الإيمان والاعتقاد ، وسائر حقوق الإنسان .

هذا عرض لجملة اختلاف الشرائع ، وأسباب هذا الاختلاف في الخطاب الحصري السابق على الإسلام ، وقد أشرنا فيه إلى ما استصحبه القرآن الكريم في خطابه العالمي الخالد . والآن : ما سمات هذا الخطاب العالمي ؟ ومن أين استمد عالميته هذه ؟ أو : ما قاعدة هذا الخطاب ؟ لاشك بأن القاعدة التي استند إليها هذا الخطاب أو انطلق منها في عالميته هي إنسانيته . والحديث هنا مقصور على الشريعة والأحكام التي نتحدث عنها في هذه الفقرة ، لأن (وحدة العقيدة) كانت مقررة في جميع وجوه الخطاب القرآني ، كما أوضحنا ذلك في الفقرة السابقة ، وأشرنا إلى طرف من أسبابه .

أ ـ خطاب إنساني :

وهكذا قام الخطاب القرآني العالمي في باب الشريعة والأحكام على أسس واعتبارات (إنسانية) ، ولم يقم على أي لونٍ من ألوان الاعتبارات المحلية أو الموقوتة أو الطارئة . إن ظلم بني إسرائيل وبغيهم لا أثر له هنا في التشريع ، لأن أخذهم بأحكام الشدّة ابتداءً ، أو الانتقال بهم من التحليل إلى التحريم عقوبةً . . إذا كان هذا مما يصلحهم ، وذاك مما يصلح لهم . . فإن ذلك كله ليس بالصالح في الشريعة الإسلامية ، وإن شئت قلت : في الشريعة الإنسانية التي يخاطب بها الناس في جميع العصور . . وقد أشارت بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن بني إسرائيل أنفسهم إلى هذا المعنى ، وأشارت كذلك ، أو في

الـوقت نفسه ، إلى أن (كتاب) بني إسرائيل تضمّن هذه القاعدة من قواعد التشريع في أحكام النبي الأميّ الذي سوف يبعث فيما بعد ! ليعلمهم بخصوصية خطابهم ، وعـدم صلاحيته للبقاء والاستمرار . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٥٧) .

أشارت هذه الآية القرآنية الكريمة إلى أمرين بارزين : أو إلى خصّيصتين من خصائص الخطاب العالمي في الشريعة الإنسانية : الأول : قاعدة التحريم والتحليل ، وهي الخبيث والطيب ، أي أن ما كان من جنس الخبيث فهو حرام ، وسوف يبقى حراماً إلى يوم القيامة ، وأن ما كان من جنس الطيبات فهو حلال ، وسيبقى حلالاً إلى يوم القيامة . وإذا لاحظنا أو تذكرنا البعد الزماني أو المستقبلي للقرآن الكريم ، الذي أشرنا إليه فيما سبق ، أدركنا أن عجز الإنسان في بعض العصور عن إدراك وجه الخبيث فيما حُرِّم في أي بابٍ من أبواب التحريم ، أو وجه الطيب فيما أُحلّ ، لا ينفي هذه الصفة أو تلك عما حُرّم وأُحل . . بل على العكس من ذلك تماماً ، لأنه يشير إلى أن هذه الشريعة التي تمتد أحكامها إلى يوم القيامـة قد لا يستقل جيل واحد بمعرفة كل وجوه حكمتها ، أو جميع أسباب التحريم والتحليل فيها ـ على الرغم من كونها أحلّت العقل الإنساني محلّه اللائق به ، وجاءت معظم أحكامها مقرونة بعللها وأسبابها القريبة أو البعيدة ، ـ كما هو معلوم ـ لأن شيئاً من ذلك قد تقف عليه أجيال قادمة في مستقبل هذه الشريعة أو هذا الخطاب المستمر .

ولهذا كان محمد ﷺ خاتم النبيين ، وكانت شريعته خاتمة الشرائع ، وأن نسخاً أو تعديلاً لا يطرأ عليها حتى يرث الله الأرض ومن عليها ! اللهم إلا إذا جاز على الطبائع التي خلقت عليها (الأشياء) أن تتبدل ، وعلى طبيعة الإنسان ، أو على خلقه وتكوينه أن ينسخ أو يُعدَّل ! وهيهات .

الأمـر الثـاني : هذه الشريعة شريعة التخفيف ، أو شريعة وضع الإصر والأغلال ! ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ بل إن هذه الآية التي ختمت بها سورة البقرة تتسع في هذا التخفيف وتنزل به إلى مستوى الأفراد أو كل نفس ، بعد ذلك التخفيف العام ! قال تعالى في هذه الآية : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٢٨٦) ونحـوه قولـه تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (سورة التغابن : ١٦) ولا خلاف على أن (الذين من قبلنا) يراد بهم اليهود ، كما يقول المفسّرون . وكـما يدل عليه الجمع بين الآيات السابقة . والآيات في أن هذه الشريعة الإنسانية شريعة تخفيف كثيرة منها قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة : ١٨٥) وقوله عزّ من قائل : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (من الآية الأخيرة : ٧٨ سورة الحج) . في حين أشارت بعض الآيات الأخرى إلى أن قاعدة هذا التخفيف إنسانية كما قدمنا ، أو أنها ربطت بين هذا التخفيف وخلق الإنسان ، أو « طبيعته » وقدراته ؛ قال تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء : ٢٨) ، وقال تعالى : ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ (سورة الأنفال : ٦٦) .

ب - خطـاب عقـلي :

قلنـا إن الشدّة أو العقوبة إذا كانت صالحة في الشريعة الإسرائيلية رعاية للقوم ، فإنها ليست بالشريعة الصالحة لبني الإنسان ، أو لجميع الناس في جميع العصور ، لأن هذه الشريعة لابد أن تكون إنسانية أو « مفصّلة » على الإنسان - إن صح التعبير- خارجاً من إطـار الـزمان والمكان . . بمعنى أن « واقع » الإنسان في زمن بعينه وبيئة بعينها ليس هو الحاكم على هذه الشريعة ، أو أنها لم

تأت رعايةً لهذا الواقع أو استجابة له ! وإذا لم يكن في وسع أحد أن ينكر تعدّد هذا الواقع عبر الزمان والمكان ، فإن أثره في الشريعة الإنسانية أو في الخطاب العالمي ليس في قواعد التشريع وأصول الأحكام ، ولكن في صور الفهم لهذه الأصـول والقـواعد ، وفي شروط تنزيلها على هذا « الواقع » المتعدّد للشعوب والأقوام ، والمتغير أو المتطور عبر العصور والأزمان . . فكأنّ الشرائع المتعددة في الخطاب الحصري ، أو في كل خطاب حصري . . يقابلها : الفهوم المتعددة في الخطاب العالمي . . فنحن في هذه الحال أمام أصول جامعة وأنماط متعددة . . أي أمام مزية الوحدة والتنوّع في هذا الخطاب . فالوحدة تقابل وحدة الإنسان، والتنوّع يقابل ـ أو يناسب ـ العصور والأقوام . ومن هنا جاءت هذه الأصول في خطاب إلهي ـ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ـ تعهّد الله تعالى ـ لذلك ـ بحفظه ، وأعلمنا بأن باطلاً لا يلحقه من بين يديه ولا من خلفه . . ولم يترك تقـرير تلك الأصـول للعصـور والأقـوام . . لأن خطابهـا جميعـاً سوف يكون حصرياً ، أو لا يتأتى له أن يتجاوز هذه الحصرية لأسباب يطول شرحها في هذا المقام . ولا خلاف في جميع الأحوال على أن الإنسان ابن بيئته وابن زمانه ، وأن العبقرية الإنسانية تحمل بالضرورة طابع الأرض ـ بحسب عبارة الأستاذ مالك بين نبي ـ بل إن من مسلّمات الفكـر الأوروبي ، ومن نسـج على منواله : أن التاريخ (أي الزمان) يخلق الفكرة وليس العكس ! [1].

والأمـر المهم هنـا : أن صور الفهم والتنـزيل ، بوصفها مناط التنوع في الخـطاب العالمي ، تعني عقلية الخطاب أو عقلانيته . . ليس فقط للدور التي أنيط بالعقل مع تلك الأصول والقواعد ، على المعهود من أصول الفقه ومقاصد الشريعـة ومـذاهب التفسير . . ولكن لأن هذه الأصول والقواعد ذاتها جاءت معلّلة و« معقولة » المعنى كما يقول الأصوليون ، ولأنها أشارت في الوقت نفسه إلى التقاء العقل بها ودلالته على ما دّلت عليه كلّما اتّسعت عند الإنسان دائرة النظر

(١) انظر برهان غليون : نقد السياسة : الدولة والدين ، ص ١٨ فما بعدها . الطبعة الثانية ١٩٩٣ م .

والفكر والتدبّر ـ على النحو الذي أمر به هذا الخطاب وحثّ عليه ـ وكلّما ارتقت بالإنسان تجاربه ومعاناته خلال العصور . . قال تعالى : ﴿ إن هو إلا ذِكْرٌ للعالمين . ولتعلمنّ نبأه بعد حين ﴾ (الآيتان : ٨٧ ـ ٨٨ من سورة ص) حتى إن مما يدعو إلى الإشفاق أن لا يقف بعض المخاطبين على هذه الدلالة الواحدة أو المتفقة للعقل والدين قبل يوم الحساب !! ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (سورة الملك : ١٠) فعطفوا العقل على السمع بـ « أو » إشارة إلى هذه الدلالة الواحدة أو المتفقة . يضاف إلى ذلك أن هذه القواعد والأصول تركت للعقل الإنساني ساحة مترامية الأطراف لتملأها تجارب الدهور والعصور ، والأمم والأقوام ، في ضوء تلك القواعد والأصول ، أو مع عدم الخروج عليها والنقض لأحكامها .

ولعل حديث النبي ﷺ : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1] جاء في هذا الباب ؛ لأننا حين نحاول فهم هذا الحديث في إطار عالمية كلام النبي ـ ﷺ ـ المقرّرة ـ أسوة بالقرآن الكريم ـ أي في إطار الامتداد التاريخي والزماني الذي أشرنا إليه عند تقسيم العصور إلى ما قبل نزول القرآن وبعده ؛ نجده يعتدّ بكل ميراث الإنسانية ومنجزاتها في حقل مكارم الأخلاق ، بمعناها الواسع أو المفهوم من هذا النص البليغ ، سواء أكانت نبويّة سابقة ، أم عقلية لاحقة . ونحو هذا الحديث كذلك : قول النبي ـ ﷺ ـ : «الحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها »[2]! إنه ليس من حقه ، أو واجبه ، أن يأخذ بها فحسب ، بل هو « أحق » بها من سواه . . لأنه أقدر حتى من صاحبها الذي وجدها عنده في إخراجها من دائرتها الإقليمية أو الخاصة ، ووضعها في نسقها الإنساني العالمي أو العام .

---

(١) وفي رواية « صالح الأخلاق » حديث متصل من وجوه صحاح ، عن أبي هريرة وغيره . كما قال ابن عبدالبر . رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان ، والبخاري في الأدب المفرد . ورواه من طريق أبي هريرة أيضاً : الإمام أحمد . قال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح . انظر : فيض القدير للمناوي ٢/٥٧٢ .

(٢) رواه الترمذي وحسّنه .

ويمكن القول ـ بهذه المناسبة ـ إن هذا الهدي النبوي يشير إلى أن علاقة الخطاب الإسلامي العالمي مع الآخر الثقافي علاقة إتمامية تكاملية ، وليس إقصائية عدمية ، مع ما تومىء إليه هذه العلاقة من الانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى .

وقد يكون من سمات الخطاب الحصري ، نظراً لتردده بين العقل والوحي ، أن يوضع أحدهما في مقابل الآخر ، فإما أن يتلقى المرء عن الإله أو عن الدين ، وإما أن يحتكم إلى العقل ويعوّل على التجارب . . وتلقّيه عن الدين لا يعدو أن يكون في هذه الحال مجرد تلقٍ . . أو مجرد تلق للتطبيق الآلي أو للخضوع والتنفيذ . . دون مرور على قناة « العقل » للاجتهاد والتفسير ، أو للفهم والتنزيل . . قال تعالى في شأن بني إسرائيل : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٧١) إنه الحمل على التطبيق في ظل الجبل الذي ارتفع فوق رؤوسهم ليطبق عليهم إن لم يستجيبوا . . أو إن لم يفعلوا .

أما في الخطاب العالمي الذي نتحدث عنه ، فليس الأمر كذلك كما أوضحت آيات التخفيف والتيسير التي استشهدنا ببعضها قبل قليل : ولأن النص ليس حاكماً ـ في هذا الخطاب ـ على العقل ، لأن العقل هو أداة فهمه وتفسيره والتعامل معه ، في ضوء أسس هذا الفهم اللغوية والمقاصدية والظرفية . . بل في ضوء معارف الإنسان العقلية كذلك ، وأعني ما ارتقى منها إلى اليقين عبر العصور .

وفحوى ذلك جميعه ـ في هذا السياق الموجز ـ أن الشريعة في هذا الخطاب ، مثلها مثل المعجزة في عقيدته التي أشرنا إليها . . إنها الشريعة التي يعمل العقل لفهمها وتطبيقها ، وليست الشريعة التي تبطل عمل العقول !

ونزيد هذا الأمر وضوحاً بالقول : إن هذا الدَّور الأساس أو الرئيس للعقل منطلق من النصوص أو من هذا الخطاب ومؤسس عليه ، ولهذا فإن بعض أجيال التاريخ التي أعفت نفسها في أوقات الركود من الاجتهاد والتفسير وإعمال العقل ،

إنما فعلت ذلك اعتماداً على « اجتهاد » السابقين أو الأجيال السابقة ، أي على عقولهم وفهومهم وبرامجهم . . وليس اعتماداً على الخطاب نفسه !! ووضعاً للنص مقابل الاجتهاد الغائب أو المغيَّب ، لأن هذا كما أشرنا مما لا يتصوّر وقوعه في الخطاب أو النصوص الإسلامية التي تفرض طبيعة فهمها وتنزيلها الاجتهادَ والتفسيرَ وإعمال العقل ! ولهذا فقد كان شعار عصور الركود : ما ترك الأول للآخر ! كما شكّلت هذه العصور المناخَ الحقيقي لظهور التقليد وشيوعه ، وسيادة المذهبية أو العصبية المذهبية التي أضحت كأنها دين أو جزء لا يتجزأ من الدين . . الأمر الذي قتل روح (التنوّع) الذي أشرنا إليه أو قضى عليه بالتوقف ، حين ردّه جزءاً ثابتاً من (الوحدة) . . أو جزءاً متوارثاً أو محمولاً مع الخطاب أو جزءاً ممتداً ـ مع الخطاب نفسه ـ من عصر إلى عصر !

جـ - بين تعدد الفهوم والاختلاف في الدين :

وتصل بنا هذه النقطة الأخيرة إلى ضرورة التفريق بين تعدد الفهوم الذي خلف ـ في الخطاب الحصري ـ تعدد الشرائع ، والاختلاف في الدِّين ، لأن الأمّة الممتدة نهيت عن هذا التفرّق الذي وقع فيه اليهود والنصارى ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة آل عمران : ١٠٥) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ ﴾ (سورة الأنعام : ١٥٩) ولا تخفى دلالة هذا النهي عن الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب على وجه الخصوص ، بعد ما أشرنا إليه من استمرارهم وبقائهم من بين سائر أصحاب الخطاب الحصري السابق . إن تفريق الدين ضربٌ من التحريف والتلاعب أو العبث بأصوله أو ثوابته ! فلا يدخل فيه اختلاف الفهوم أو تعدد الآراء والاجتهادات في جميع الأبواب التي جاءت في الخطاب (الديني) أو نصّت عليها مصادر الدين وثوابته . . بل إن أيّ محاولة لقصر الفهوم والاجتهادات على رأي واحد ، خوفاً

من الاختلاف والتفرق ، أوظناً بأن تعدد الآراء يعنى تفريق الدين والانقسام إلى شيع وأحـزاب . . لا تعـدو أن تكـون في حقيقة الأمر رد الخطاب العالمي إلى خطاب حصري يمثل في غالب الأحوال عصراً معيناً أو بيئة خاصة . وعلينا أن نشـير هنا ـ في نطاق الخطاب العالمي ـ إلى عموم الدين ـ الإسلام ـ وخلوده ، ونسبية (التـدّين) أي نسبيّة وتاريخية الفهوم أو التشخيص والتنزيل ، فالمحرم والمنهيّ عنه : تفريق الدين ، أما الاختلاف في (التدّين) ففيه انفساح واتّساع ، بل هو الأصـل كما قدّمنـا ، علماً بأن تفـريق الـدّين سوف يفضى إلى التفرّق والانقسـام إلى شيع وأحزاب ، فليس كل تفرّق ـ أو اختلاف ، بكلمة أدق ـ مذموماً ، ولكنه المبني على تفريق الدين ، فكأن المراد : فرّقوا دينهم فتفرقوا إلى شيع وأحـزاب . ويبـدو من سياق الآيات التي أشـارت إلى هذا المـوضوع أن (الدين) يطلق على نصوص الوحي وثوابته : قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ . . ﴾ (سورة الشورى : ١٣) وقال تعالى في سورة الشورى في الآية ٢١ : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وقال تعالى في اليهود : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ ﴾ (سورة النساء : ٤٦) .

وعـلى ذلك ، فإن الاختلاف والتفرّق المذموم أو المرفوض ، في ضوء هذا الفهم للآيات ، هو التفرق المبني على الصور الثلاث التالية لتفريق الدين :

١ - الإيمان ببعض الكتاب ، والكفر ببعض . . أو قبول بعض الآيات ، ورفض بعضهـا الآخر . ويدخل في هذه الصورة بطبيعة الحال : نسبة القرآن الكريم إلى الزيادة والنقصان ، أو التحريف والتبديل .

٢ - تفريق السنّة عن القرآن ، بالرد أو الطعن ، أو بشروط القبول التي تفضي إلى الرد والإنكار .

٣ - التفريق بين ألفاظ القرآن ومعانيها ، أي المعاني التي دلت عليها هذه الألفاظ بالمواضعة ، أو بأصل الوضع اللغوي ، فِعْلَ الباطنية ونحوهم - على سبيل المثال - ممن (أوّلوا) الآيات على نحو يأباه اللسان .

أما ما سوى ذلك من الاجتهاد والتفسير ، سواء أكان في العقيدة أو الشريعة . . أو في آيات الأحكام أو آيات الاعتقاد ، فليس داخلاً في باب التفرق أو تفريق الدين . . وقد يكون وراء التفرق المرفوض في الصور الثلاث السابقة أسباب سياسية ، وقد لا يكون . ولكننا لا نسلّم بصحة رأي من يرى أن الاجتهاد والتفسير في باب الفقه مقبول ، وفي باب العقيدة مرذول أو مذموم ! لأن هذا التفريق لا يستند إلى أساس ، في الوقت الذي اعتمد فيه الفقهاء وعلماء العقيدة ، على الاجتهاد والتفسير : الفقهاء في آيات الأحكام ، والمتكلمون في آيات العقائد . بل نضيف إلى هذا أيضاً أن محاولة بعض المتكلمين تفسير آيات العقائد في ضوء العقل ، أو محاولة التوفيق بينها وبين العقل . . لا تسمح لنا بأن ننزل بالخلاف أو التفرق المبني على هذه المحاولة إلى درجة التفرق في الدين ؛ لأن العقل موجود قبل ورود الشرع وبعده ، أو قبل الخطاب القرآني العالمي وسائر ألوان الخطاب التي سبقت للشعوب والأقوام ، مع الإشارة إلى أن العقل ورث في هذا الجانب الخطاب الواحد الذي تعاقبت على تأكيده جميع النبوات السابقة على نبوة سيدّنا محمد ﷺ ، بالإضافة إلى أن القرآن أعطى العقل هذا الحق في التفكير المبتدأ أو المسبق إن صح التعبير ، وفي آيات كثيرة كما هو معلوم ، قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ (سورة الروم : ٨)

فلو أن بعض المتكلمين ذهب بناء على ذلك إلى القول إن الخطاب القرآني في باب الاعتقاد مؤكِّد ومصوِّب . وفي باب الشريعة والأحكام مُنشىء ومؤسّس . لم يكن قوله هذا بعيداً عن الصّواب ، ولو عدّه بعضنا كذلك فلا بأس بذلك ، فلكل رأيه واجتهاده ، وأدلّته وبراهينه ، ولكنْ لا نستطيع في جميع الأحوال أن نقول إن

هذا من باب تفريق الدّين !! وهكذا ، فإن وجود المعتزلة والأشاعرة والماتريدية ونحوهم كوجود الحنفية والشافعية والمالكية ونحوهم ، أو قريب منه . والله تعالى أعلم .

رابعا : خلاصة وتعقيب :

هذه معالم الخطاب الحصري للأقوام والشعوب السابقة على الإسلام ، يقابلها في الطرف الآخر : خصائص الخطاب العالمي . وقد تكون كل واحدة من هذه الخصائص : البيئي والمرحلي ، وما يتصل بذلك من منهج الاعتقاد وسمات التشريع . وفي المقابل : الإنساني والعقلي ، وقابلية التفسير في جميع العصور . . قد تكون كل واحدة من هذه السمات بحاجة إلى داسة مستقلة تتناولها بالتفصيل ، وتشرح ما يندرج تحت كلٍ منها من السمات الجزئية . وأرجو أن يكون هذا البحث مقدمة لمثل هذه الدراسة بطبيعة الحال .

والذي أود أن أشير إليه أخيراً ، تعقيباً على « عالمية » الخطاب هذه ، أن هذا الشعار ـ العالمية ـ الذي كثر الحديث عنه في الآونة الأخيرة ، وبخاصة تحت عنوان : عالمية الثقافة ، المساوي أو الموازي حقيقةً لعالمية الخطاب ، أن سمة العالمية هذه تطلق في واقع الدراسات باعتبارين : الأول : الإطلاق الذي جرينا عليه في هذه الصفحات ، والذي قصدنا به : ما يتمتع به الخطاب من خصائص ذاتية تؤهله لهذه العالمية أو للتوسع وسعة الانتشار على المستوى الإنساني ، أو الكوني . . بحيث لا يسمح الموقف بالحديث عن « الخصوصية الثقافية » في هذا الخطاب إلا بمقدار عدم مواكبة الثقافات الأخرى لهذه الثقافة ، أو تقصيرها عن أن تبلغ مداها الإنساني العام . . فكأن خصوصية هذه الثقافات هي العامل في إبراز خصوصية هذه الثقافة (العالمية) أو وسْمها بسمة الخصوصية في مقابل تلك الثقافات ! علماً بأن الخطاب الإسلامي العالمي في وسعه أن يفكَّ هذه التقابلية ـ الدائمة أو القائمة ـ بين الكونية والخصوصية ! أو هو المرشح للقيام بهذه المهمة في ضوء جمعه بين الدنيا والآخرة ، والعقل والدين ، والدّين والعلم . . بل في ضوء طبيعته التي تحدثنا عنها ، والتي جاء معها هذا الخطاب (مفصلاً) على

الإنسان ؛ بمعنى أن جميع عناصره ـ أي عناصر الخطاب ـ في الاعتقاد ، والعبادة ، والتشريع ، والتربية ، والأخلاق . . إلخ جاءت وفق (الطبيعة الذاتية) للإنسان بعيداً عن مؤثرات البيئة أو الزمان ، أو مجرّدة من هذه المؤثرات ، ومن سائر النظرات القاصرة وردود الأفعال ، وسائر ما يجعل من هذا الخطاب استجابة لمؤثرات بيئية أو محدودة أو طارئة . وغني عن البيان أن الخطاب القرآني خرج من مواضعات العصور ، وخوطبت به من ثم جميع الأجيال ، بوصفه وحياً إلهياً موجّهاً إلى الناس كافّة . . وأن خطاباً إلهياً آخر لن يلحقه أو يأتي في أعقابه إلى يوم الدين . وينبني على ذلك أن الثقافة التي تبلورت وأخذت ملامحها من خلال حركة تاريخ أمة من الأمم أو شعب من الشعوب لا يمكن وصفها بالعالمية ، حتى وإن أخذت فرصة هائلة للتعميم ـ أو العولمة ! ـ وسعة الانتشار ، لأن هذا التعميم ـ بالغاً ما بلغت حدوده ـ لا يخرجها عن طبيعتها (الإقليمية) بوصفها حصيلة تاريخ أمة من الأمم .

وأصل هنا إلى الإطلاق الثاني لهذا المفهوم أو المصطلح ـ عالمية الثقافة أو عالمية الخطاب ـ والذي يعني الثقافة التي تخطّت الحدود ، ووصلت إلى جميع الأمم أو دول العالم ، فتأثرت بها أو تعاملت معها أو أخذت بها ! ونميّز هنا بين (عالمية الثقافة) بالمعنى الأول المشار إليه ، والمؤسس كما قلنا على خصائص الثقافة التي تجعل منها ثقافة (مؤهّلة) للعالمية ، أي سواء كتب لها التوسع و« العولمة » أو سعة الانتشار ، وسواء قوي أهلها على تحقيق عالميتها في الكون أو على الأرض ، أم لا . نميز بين هذه الثقافة والثقافة العالمية بوصفها وضعاً راهناً توصف به في عالم اليوم : الثقافة الغربية ، أو الثقافة التي مشت في ركاب الحضارة الأوروبية ، وأصابت هذا التوسع وسعة الانتشار ، بغض النظر عن « حجم » المؤثرات التاريخية الأوروبية الخاصّة فيها ، وبغض النظر كذلك عن « وسائل » فرضها وتعميمها ؛ أولاً : في ظل التوسع الاستعماري وسياسة البعثات الثقافية ، ثم من خلال الإعلام المعاصر ، وعبر سياسات الدول القوية

أو النـافـذة . . وأخـيراً من خلال التـطبيع الثقافي ! وما سمّي بالنظام العالمي الجديد . . إلى غير ذلك من الأسباب ، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ . سورة يوسف الآية ٢١ .